قصة اجتماعية فى رسالة

زوجة الأب

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

عزيزتى هيلين ...

لا ريب أنك ترتقبين البريد فى لهفة كل يوم ، على أمل أن يحمل إليك من أبيك خطاباً ؛ بل إنى لأكاد أتخيلك وأنت تشيعين الساعىَ بنظرة ملؤها الدهشة والألم معاً ، فى كل مرة يمضى فيها دون أن يترك لك هذا الخطاب المنشود . ولعل دهشتك ستكون أبلغ حينما تتلقّين هذه الرسالة من « زوجة أبيك » . وإنى لأستطيع أن أسمعك وأنت تقولين لصديقتك إيدنا :

— أبلغ من تأثير هذه المرأة عليه ألا يخاطبنى إلا عن طريقها ؟!

على أنى ألتمس إليك أن تبادرى بتدارك هذا الوهم الذى تقعين فيه ؛ فلم يسألنى أبوك أن أكتب إليك ، بل إنه ليجهل أنى بعثت إليك بهذا الخطاب ؛ ولعله لو عرف لغضب . وهو فى الحقيقة لا يكاد يذكر اسمك أمامى ، من يوم أن عدنا إلى المنزل فألفيناك قد هجرته غضبى . فكل ما أفعله إنما هو بإرادتى ومن محض تفكيرى ... وما أشك فى غريزة حب الاستطلاع ستدفعك إلى قراءة كتابى حتى آخر كلمة فيه ؛ فإن من غير المستساغ أن ترسل زوجة أب بخطاب مطول صريح اللهجة إلى ابنة زوجها الوحيدة ، ولما تمض على نهاية رحلة الزواج أيام ... !

ولكن ... ماذا أنا قائلة لك ؟ وكيف أوضح موقفى بحيث أستطيع — وحسبى هذا — ألا أزيد الأمور بينى وبينك تعقيداً ؟

إعلمى أولاً أنى لن أتوجه إليك بأدنى لائمة ؛ بل إنى لأقدر — بعطف بالغ — هذه الإحساسات التى دفعت بك إلى الرحيل ، وأدرك أنك تنظرين إلى العلاقة بين زوجة أب وفتاة متحررة فى التاسعة عشرة من عمرها ، كأمر يصعب الاحتفاظ به ؛ ولو كنت فى موضعك لما وسعنى إلا أن أتمرد مثلك ، ولكن ليس بهذا الأسلوب الذى اصطنعت ... !

واسمحى لى أن أذكرك — وملء نفسى الأسى البالغ والأسف المرير — بأنك قد تصرفت تصرفاً انطوى على أبلغ القسوة وأشد الإهانة لى ولأبيك . وصدقينى حين أقول لك إنى لا أشكو مما أصابنى شخصياً ؛ فقد كان عملك لطمةً موجهة إلىَّ ، ولكنها كانت أشد ما يكون وقعاً على والدك المسكين ... لقد أمضه الألم وأرمضه الحزن حتى لاذ بالصمت ؛ وبالتالى وجدتنى متألمة لألمه ...

وأعترف لك بأنى لم أكن أتوقع منك تصرفاً فجائياً مؤلماً كهذا . ففى مرحلة تعارفنا الأولى كانت تربطنا مودة صادقة ؛ ولما بدا احتمال اتصالنا برباط أوثق عن طريق أبيك ، استحال إخلاصك وثقتك السابقان إلى نفور مزاجه التأدب والتحفظ ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً ...

ولقد بدا لى أنى أستطيع متى أظلنا سقف بيت واحد ، أن أجعلك تفهمين مقصدى وحقيقة شعورى

كنت ولا أزال أحبك كثيراً ؛ أحبك لشخصك ثم لأنك ابنة « أبيك » ! ولقد شجعنى تصرفك قبل الخطبة وبعدها على الأمل فى أن أحل وإياك المشكلة التى طالما سببت المتاعب للأسر جميعاً : مشكلة العلاقة بين الأبناء وزوجات الأب . وعلى هذا الأمل قضيت « شهر العسل » فى وافر من الغبطة والسعادة .

ولكن ... أى استقبال هذا الذى أعددته لنا !

صادقاً بكلمة السماء ، خالداً بخلود الفضيلة والحق . وحيوية الفكرة فى الفنون — يا والدى — هى دلالتها على زمنها ، وعقلية أصحابها ، وما يموج بأحاسيسهم ، ويضطرب فى ميولهم ، ويختلج فى صدورهم ، ويساير نهضة علومهم وعقليتهم ، ويلابس حقيقة مجتمعهم ، ويرمي إلى مثلهم العليا فى مفاتن الجمال ، وروائع الحسن ، وبدائع الفن ، ومحامد الأخلاق ... وحيوية الفن إذا اتسعت آفاقها ، وعظم خطرها ، بسطت حيويتها على كل فكرة وأمل وغاية ، وخلعت على صاحبها ، أو الأمة التى نضجت فيها ، لوناً خاصاً يحدد مكانها من عالم الفن ... بل إنها لتجعل صاحبها يبعث روحه فى كل ما يكتسبه من العالم الخارجى ويطبعه بطابعه الخاص ... وهذه هى رسالة الحيوية الحق فى الفن !

قلت : ما أحوجنا — يا بنى — إلى هذه الحيوية ، حتى لا نضرب فى ظلمات التقليد الأعمى لكل ما هو غربى ، من غير أن نعمل التأمل فى أسبابه وغاياته وملابسته لأحوالنا ، ومسايرته لميولنا وأحاسيسنا وتقاليدنا !

محمود البشبيشى

ليتك تعلمين يا هيلين كم كان أبوك يشتاق إلى لقائك طوال مدة رحلتنا !

لم نرك فى انتظارنا على المحطة كما كنا نتوقع . قلنا : حسناً ، إنك فى المنزل بلا ريب تترقبين عودتنا ؛ وقد أعددت لنا عشاء شهياً ينسينا مشقة سفرنا الطويل . ولما اقتربنا تفرس أبوك فى نوافذ المنزل علّهُ يراك ؛ ولكنا لم نلمح غير السجوف المرخاة فى عناية ، وأطراف هذه الستائر الفرنسية التى شذبتها يداك منذ عام . واخترق والدك الممر وثباً . ثم فتح الباب بمفتاحه الخاص وهو يهتف فى قلق :

هيلين ، هيلين ... أين أنت ؟ ! ...

وانفتح أحد الأبواب ، وأطلت منه الخادم وعلى وجهها سمات الذعر ؛ فبادرها بالسؤال : أين مس هيلين ؟ ...

وكانت الحقيقة أروع من أن تعترف بها الفتاة ، فاضطربت وهى تتمتم بأنها لا تدرى ... ثم انزوت عن وجهه سريعاً .

أسرع أبوك إلى غرفتك « الأستديو » وفتح بابها ؛ فدله المنظر الذى أمامه على ما حدث بأتم وضوح . كان كل ما يخصك أو يهمك فى الحجرة قد اختفى ، فلم يكن ينقصه — ليعرف ما صنعت — أن يقرأ هذه الرقعة التى تركتها على رف الموقد بعد أن خططت عليها كلمتك القصيرة :

« لقد انتقلت عن هذا البيت لأقيم مع صديقتى إيدنا كورى »

ومع ذلك فقد أطال أبوك التحديق فى هذه الوريقة وهو يوليني ظهره ، ثم استدار إلىَّ بعد حين فالتقت أعيننا وأعتقد أننا تبادلنا فى هذه اللحظة كل ما نستطيع التعبير عنه بالكلام

وأخيراً مس ذراعى بيده مترفقاً وهو يقول : تستطيعين أن تهيئى لنا طعامنا الآن ... كان يتكلف الهدوء ويتظاهر بعدم المبالاة ؛ فعجلت بالانصراف من أمامه قبل أن يتبين فى وجهى أنى أدرك حقيقة شعوره . وعند ما التقينا بعد ذلك على مائدة الطعام كان يتصرف كما لو أن شيئاً هاماً لم يحدث ! ولقد جاريته فى رغبته ؛ ولم يكن يتسنى إلا لمثلى ومثلك ممن يعرف خبايا نفسه أن يلحظ هذا الألم الذى يعصف فى صدره . وإنى لواثقة من أن أباك لن يلتمس إليك العودة بحال ؛ وأنت التى ورثت كبرياءه تذركين لم لا يفعل ذلك . أما من جهتى ، فلن أطلب إليك شيئاً كهذا العلمى أن أيسر ملتمس منى جوابه الرفض . وإنما سأخاطبك فى وضوح . وسأحاول أن أبين لك أن زوجة الأب على رغم سمعتها السيئة تستطيع أن تكون أحياناً صادقة الرغبة فى تفهم وجهة نظر ابنة زوجها ، بل هى قد تقبل التضحية البالغة من جانبها فى سبيل أن تخيم السعادة على الجميع . وما خطابى هذا إلا دليل ملموس على ذلك . قد لا تفهم فتاة مثلك لماذا يرغب أبوها فى الزواج مرة أخرى ؛ ويبدو لها طلب أبيها لزوجة جديدة أمراً شاذاً غريباً كما لو راحت هى تلتمس لنفسها أماً أخرى ! وهى ترى أن كائناً من كان لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذى خلفته أمها ؛ وبالتالى لا تكاد تصدق بوجود المرأة التى تملأ من أبيها فراغ الزوجة . ومن المشاهد أن تطفّل امرأة أخرى — بعد ذهاب الأولى — من الأمور غير المرغوب فيها ؛ حتى ولو كانت الأولى قد قصرت فى أداء مهمتها كزوجة أو أم . فكيف يكون الحال مع امرأة فضلى كأمك جديرة بكل حب من زوجها وطفلتها ؟

لا ريب أن موضعها سيبقى شاغراً إلى الأبد !... لست أطالبك بأن تنظرى إلى المسألة كما أنظر إليها ، أو تضعى فى ذهنك أن أباك هو أول من أحببت ، وأنه عند ما سألنى الاقتران به أحسست بسعادة لم أكن أحلم بها . فستقولين — وأنت محقة — إن هذه أمور لا تعنيك فى شىء ؛ وعليه فلنجعل الأساس المشترك بيننا سعادة والدك ، فعند هذه النقطة قد يلتقى سهمانا ...

ولو أنك فكرت فى الأمر قليلاً لوجدت أن مزايا والدتك وفضائلها ، هى التى لجأت أباك إلى التزوج مرة أخرى . وقد يبدو لك هذا الكلام متناقضاً أو قائماً على الوهم ؛ ولكنه فى الواقع ينطوى على نتيجة طبيعية يفضى إليها منطق مستقيم . فإن الزواج إذا انفصمت عروته بالموت يترك من الفراغ والوحشة بقدر ما حقق من سعادة ونعيم ...

وأنت نفسك — لن تستطيعى الادعاء بأن حبك لوالدك بعد وفاة أمك ، قد شغل أكثر من ركن صغير ، وصغير جداً ، من هذا الفراغ الذى خلفته وفاتها ! وكذلك الحال مع الأب ، فما حبه لطفله إلا تتمة حبه لزوجه . والعلاقة بين الأب وابنته تختلف — كما وكيفاً — عن علاقة الزوج بزوجه . وأنا لست أدعى فى لحظة ما أنى قد ملأت هذا الفراغ تماماً ؛ ولكنى أردد صادقة أنى اكتسبت محبة أبيك وثقته ، وأنى أسعدته بحيى له سعادة لم يكن لينالها — على الأقل — بغير حب المرأة ...

وما إخالك تنكرين أنه قد اختارنى بمحض إرادته ؛ وليس لمجرد دافع يسير ، بل لحاجة ماسة إلى تجديد هذه العلاقة الوثيقة التى افتقدها بموت والدتك . فإذا أنت أدنتنى فقد أدنت أباك ،

وبحكمك هذا يبدو مبلغ قصورك فى إدراك حقيقة الطبائع البشرية

وقد تبدو نظريتك معقولة من فتاة غير متزوجة تفيض نفسها بالوفاء الخالص والطيبة الساذجة ، ولكن لن يقاسمك هذه النظرة أى رجل أو امرأة ممن خبر الحياة وعرفها على حقيقتها .

والآن ... دعينى أتقدمْ بك خطوة أخرى :

لا بد لك أن تسلمى — إن عاجلاً أو آجلاً — بأن أباك هو صاحب الحق المطلق فى تقدير قيمة هذا الزواج الأخير الذى ارتبط به ؛ ولكنك قد تحتجين بأن هذا التسليم لن يغير شيئاً من شعورك نحوى . ولعلى لا أكون مخطئة إذا قلت إنك قد قلبت هذه المسألة من جميع وجوهها مع صديقتك « إيدنا » فرثت لحالك وأقرتك على موقفك . وإنى لأستطيع — متى شئت — أن أسرد عليك كل ما دار بينكما من حديث ؛ أو بالأحرى كل ما ألقته من « حجة » وعقبتْ عليه من « تأييد » . وأنا واثقة من أنك قد قلت الشىء الكثير مما كنت أقوله لو كنت فى مثل هذا الموقف . كنت أقول إنى أطلب حياة مستقلة لا تعترض سبيلى فيها امرأة أخرى كائنة من كانت ؛ وكنت أذكر مبلغ حنينى إلى هذه المعيشة الحرة التى أنفقت فيها عامىَّ الأخيرين ، أغدو وأروح فى حرية تامة ، وأختار أصدقائى وفق ما أشتهى ، وأدبر شئون بيتى بأسلوبى الخاص ؛ مستمتعةً بهوايتى ، أرسم حيث أريد ومتى أشاء ؛ أقضى أوقات فراغى فى خمول إن أحببت ، أو أدعو أصدقائى إلى تناول الشاى والرقص والحفلات التمثيلية الخاصة ، آخذة من كل متعة بنصيب دون أن أجد من يعترض سبيلى أو يقول كلا ... لست أرى لك ذلك يا عزيزتى .

كنت أرفض رفضاً باتاً كل تدخل — أو تهديد بالتدخل — بينى وبين هذه الحرية النفسية ؛ وكنت أرى بالبداهة أن دخول زوجة الأب المنزل إنما هو قضاء عاجل محتوم على كل هذه المناعم والملاذ ...

ألم أصور لك نفسك فى جلاء ؟ . . . ألم تقولى كل هذا لصديقتك إيدنا فدعتك إلى هجر بيت أبيك والإقامة معها : ترسمين بـ « الباستيل » كما تهوين ، وتكتب هى القصص القصيرة على طريقة « موبسان » ؛ فى ضيان حياة بوهيمية رائعة ؟ ... لست متيقنة من قدرتى على إقناعك بالخطأ الذى بنيت عليه هذا القرار الفاجىء بالرحيل عنّا ، وهذا مما يزيدنى شفقة عليك وعطفاً . قلت لك إنك أخطأت فى الحكم على ، وسأوضح لك ذلك الآن فإن مما يؤلمنى كثيراً أنك لم تقدرى صعوبة تلك المهمة التى تكلفت بها ، ولم تعامليني معاملة تدل على تقديرك لمشاعر المرأة التى تخيرها أبوك زوجة له . كنت قد وطنت نفسى — متى أظلنى وإياك سقف بيت واحد — على أن أترك الأمور تسير فى مجراها ما وسعنى ذلك ؛ فلا أتعرض لك فى شىء ولا أحول بينك وبين تحقيق رغبة . . . كنت قد وطدت عزيمتى على أن أعاملك كما أعامل أختاً لى صغيرة ، على أن أتخلى — مع ذلك — عن حق الأخت الكبرى فى التوجيه وإسداء النصح ، ما لم تطلبى إلىَّ شيئاً من هذا . بل كان يرضينى أن تقوى على شئون المنزل دونى إذا سرك هذا وأرضى أباك ؛ وأنت تعلمين مبلغ تضحيتى فى ذلك ، لأنك تدركين كما أدرك كبرياء المرأة وشدة اعتزازها بالسيطرة على مرافق بيتها . لم أكن أريد أن أنتزع شيئاً من اختصاصاتك إلا ما أوجبه لى حق الزوجية ، من ألا تحتفظى بأبيك خالصاً لك من دونى !

ولقد ساغ لى هذا التفكير لأنى أقرب فى نشأتى من أبناء جيلك منى إلى أهل الجيل الماضى ؛ فأنا متوسطة بين الجيلين ، ولست متقدمة فى السن كما قد تتصورين يا عزيزتى هيلين . ولقد رُبيت منذ طفولتى على هذه الحرية التى تذوّقتِ أنت حلاوتها ، ولكنى تخليت عن كل ذلك لأبيك وأنا راضية مختارة لأن ثمة فى الحياة ما هو أثمن من الحرية ؛ وإنى لأرجو لك أن تتخليْ مثلى عن حريتك ، فى اليوم الذى يلقاك فيه من يستأهل منك هذه التضحية ...

شكواى أولاً وأخيراً أنك حكمت علىَّ قبل التجربة ، وجعلتنى هدفاً لهذا التحامل الذى مُنيتْ به « زوجات الآباء » منذ بدأت الحياة !

وأنا لا أود أن تطول بنا هذه الحال ، وأعترف لك بأن حجرة رسمك المهجورة ومخدعك الخالى قد أوحشا بعدك وحشة لا يسعنى التعبير عنها . أما تأثير ذلك على أبيك فإنى أترك لك تقديره

وإذا كان يهمك أن تتأكدى من مبلغ صدق وصراحتى فى كل ما ذكرته لك ، فما أشك فى أنك تمنحينى الفرصة التى أدلل لك فيها على ذلك ؛ وكل ما أتمناه أن تنزعى ثوب (التحامل) وتعودى — ولو إلى فترة محدودة — حتى يتبين لك كل شىء . ومن المحتمل أنك لن تتأثرى كثيراً بما أعرضه عليك من صداقتى ، أو لعلك تعدين من الحماقة أن تأمل زوجة الأب — اللفظة القاسية — احتلال ركن من قلب ابنة زوجها ؛ وقد يكون كل ما عرضته